إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

د. محمد توفيق رمضان البوطي

يقول الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾

ويقول جلَّ شأنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين ﴾

ويقول سبحانه :﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »

روى الترمذي عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »

روى مسلم عن حذيفة بن اليمان قال : « كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه، فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره قالوا: أجل ، قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر التي تموج موج البحر ؟ فقال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت : أنا ، قال: أنت لله أبوك قال حذيفة سمعت النبي ﷺ يقول: " تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب اشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكرا، إلا ما أُشرب من هواه" قال حذيفة: وحدثته أي حدث عمر: أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر». وهو مصرع سيدنا عمر ﷺ واستشهاده على يد ذلك العلج أبي لؤلؤة الذي قتله .

وعندما نجمع بين الحديثين، هذا الحديث الذي يقول إن الفتن تموج كموج البحر، و حديث الحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء » إذا جمعنا بين الأمرين، عرفنا أن الفتنة العامة إنما هي نتيجة للمعاصي والذنوب.

أيها المسلمون:

عندما يصاب المرء بمصيبة في نفسه وأهله فليعد وليتحسس أمر نفسه، ليعد إلى نفسه فلينظر ماذا ارتكب من أمور مخالفة لربه سبحانه وتعالى، مخالفة لهدي الله وهدي نبيه ﷺ، فتلك تؤدي إلى مشكلات وسوء علاقات ومظالم وفساد في الأسرة والمجتمع، ولكن عندما تصاب الأمة بمصيبة، فإن علينا أن نتحسس مرتين، مرة على صعيد الفرد ومرة على صعيد المجتمع, ذلك ، فالمعصية التي يرتكبها الأفراد تنعكس بآثارها على المجتمع بأسره، وكثيراً ما يمكن أن يتصور الإنسان أن معصية تجري من فرد ما من فتاة أو من شاب أو من أي رجل نحو غيره، هي تصرف فردي، ولا يدرك أن هذه المعصية يمكن أن تفضي إلى فساد اجتماعي، فخروج المرأة بمفاتنها فتنة تفسد المجتمع، وانحراف الشاب في الشارع وفي المجتمع فتنة تؤدي إلى فساد اجتماعي لا تسهل معالجته.

ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعندما يقول الله تعالى هذا البيان ينبغي أن يعود كلٌ منا إلى نفسه فينظر في الفساد الذي يبدر منه وفي الخطأ الذي يرتكبه هو، في الموقع الذي هو فيه، أي فرد يعمل في مؤسسة، أي عاملٍ في متجر ، أي إنسان يعمل في مدرسة أو يعمل في دائرة ، أو يعمل في حقل ، او هو مدير أو مدار ، أياً كان موقعه يجب أن يعود إلى نفسه في الدرجة الأولى، فينظر في سلوكه وفي وضعه وفي صفاته وفي أخلاقه وفي تصرفاته فيضعها في ميزان الشرع ويتساءل: ترى أنا على خطأ أم على صواب ؟ على أن الإنسان لو عاد إلى نفسه لأدرك أنه أصاب أو أنه أخطأ، وكل منا يدرك وضع نفسه ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾كل إنسان عنده ميزان يجب أن يعود إليه من تصرفاته، ربنا تبارك وتعالى يقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ إن فتنة طافت في البلاد وزلزلت البلاد والوطن والأمة، وصارت مشكلتنا في بلادنا هذه مشكلة دولية عالمية يتحدث عنها القاصي

والداني، كل المؤسسات الدولية والإذاعات والمحطات والمواقع، وكل الناس يتحدثون عن مشكلة سورية عن أزمة سوريا. هذه الأزمة ينبغي أن ننظر إليها من زاويتين، زاوية التآمر الخارجي، وزاوية الخطأ الداخلي، والخطأ الداخلي يقتضي من كل إنسان في هذا المجتمع أن يعود إلى نفسه فيحاسب نفسه، ترى ما مدى إسهامه في هذه الأزمة التي تعيش فيها البلاد، ما مدى أثر أخطائي أنا في الحالة التي تعاني منها الأمة، ذلك أن المعصية لا تنحصر آثارها في الفرد، إن معصية أربعين شخصاً في غزوة أحد انعكست آثارها على جميع المسلمين الذين شاركوا في تلك الغزوة وكان عددهم يزيد على ستمائة بما فيهم رسول الله أصابهم شؤم تلك المعصية التي ارتكبها أربعون فقط، لذلك لنعد إلى أنفسنا، كل منا يعود إلى نفسه وربنا تواب رحيم، لا تلق التبعات على غيرك ألق التبعة على نفسك، حاسب نفسك أنك مقصر إما تجاه أهلك أو تجاه عامليك أو تجاه زبائنك أو تجاه مراجعيك أو تجاه طلابك، تجاه أساتذتك... تجاه شرطي المرور... تجاه أي إنسان في هذا المجتمع ، عد إلى نفسك وحاسب نفسك، فإنك إن حاسبت نفسك ستجد أنك لاشك مخطئ مذنب، وأمة رفعت كفيها إلى الله عزَّ وجل ضارعة بالتوبة والإنابة أمة لابد أن يرحمها الله عز وجل، كلٌ منا عليه أن يعود وينظر ويتحسس موطئ قدمه ويحاسب نفسه، فهو إن حاسب نفسه سيجد أن أخطاءً ما قد ارتكبت، وأن الفرصة متاحة لإصلاح الذات ومن ثم لإصلاح المجتمع.

أيها المسلمون

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ هناك إعراض عن هدي الله عز وجل. لو أننا مضينا إلى أولئك الذين خرجوا على النظام وعلى الدولة ، ووضعنا تصرفهم أمام ميزان الشرع ، رأينا أنهم مخالفون لأمر الله عزَّ وجل، يقاتلون تحت راية عُمِّية يعصون الله بذلك، وهم على خطأ في تصرفاتهم ولكن هذا لا يبرئ الآخرين، كوننا نقول أنهم أخطأوا لا يعني أن غيرهم لم يخطئ، وأنت أيضاً مخطئ وأنا أيضا مخطئ ، ليعد كلٌ منا إلى نفسه وليعرض تصرفاته على ميزان الله عزَّ وجل، وليحاسب نفسه وليصحح مساره وعندما كلٌ منا يعود نفسه ويحاسب نفسه سنجد أن مجتمعنا بإذن الله تبارك وتعالى قد نجا من تلك الأزمة.

لن تكون نجاتنا من الأزمة بمؤتمر، ولا بمؤسسات دولية، كل أولئك يتآمرون عليكم يتآمرون على وطنكم، يتآمرون على دينكم، يتآمرون على وجودكم، ولكن الملجأ والمنجى فقط باب الله عزَّ وجل.

ولنا إلى ذلك طريقان، صدق التضرع إلى الله، والعودة إلى الذات بمحاسبة النفس والتوبة الصادقة إلى الله عزَّ وجل. فصدق الالتجاء الله عزَّ وجل شرط لابد منه، وتصحيح مسار الإنسان، وتصحيح أخطائه والعودة الصادقة إلى الله سبحانه وتعالى بالتوبة والإنابة من كل ذنب يرتكبه الإنسان هو شرط للنجاة وشرط للخلاص.

عودوا إلى أنفسكم... أخاطب بهذا نفسي قبلكم، فعليَّ أولاً أن أعود إلى ربي، وأستغفر ذنبي وأحاسب نفسي، فأنا مثقل بالذنوب، وكل إنسان لو عاد إلى نفسه لوجد نفسه مثقلاً بالذنوب، فإذا ما رجعنا إلى أنفسنا وصححنا وصدقنا والتجأنا إلى الله لأننا ضعفاء، نحن ضعفاء أيها المسلمون ، والنبي ﷺ قال « كل ابن آدم خطاء » ليس المشكلة في أن تخطئ، لكن المشكلة في أن تصرَّ على الخطأ، المشكلة في أن ترفض تصحيح الخطأ ، المشكلة في الاستكبار عن العودة إلى الله عزَّ وجل بالتوبة عن الخطأ، هذه هي المشكلة، المكابرة والرفض والاصرار، أشد من الذنب نفسه. كل ابن آدم خطّاء. وربنا تبارك وتعالى فتح أبواب التوبة، بل قال للعباد الذين أسرفوا على أنفسهم ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

أقول للشاردين الذين ركبوا رؤوسهم وتعاملوا مع عدوهم وتآمروا على أنفسهم، تآمروا على وطنهم، تآمروا على أمتهم، أقول لهم استيقظوا من سباتكم، عودوا إلى رشدكم، فأن تموت تائباً خيراً لك من أن تموت مصراً على خطئك، مصراً على تآمرك. وعلى أنه لو أنك صدقت في التوبة إلى الله عزَّ وجل ستجد أن الله تعالى جعل لك من الضيق الذي تعاني منه فرجاً ومخرجاً؛ هذا على الصعيد العام

وعلى صعيد أضيق، أقول لكل فرد منا ظلم نفسه بارتكاب ظلم بردة فعل تجاه خطأ من هذا أو من ذاك، في الميدان السياسي أو في ميدان التعامل الاجتماعي أو في أي مجال من المجالات، كلنا

بحاجة إلى مراجعة الذات ، كلنا بحاجة إلى العودة الصادقة إلى الله سبحانه وتعالى، فإن صدقت منا التوبة؛ فلابد أن يسعفنا الله عزَّ وجل بالرحمة والغيث والفرج بإذن الله تعالى.

أريد أن أعود بكم في الذاكرة إلى سنوات انصرمت، ثلاث مرات عقدت صلاة الاستسقاء في دمشق هنا، ألم تجدوا أن الله استجاب دعاءنا وأغاث أمتنا في المرات الثلاث؟ ألم يسعفنا الله تعالى ببركات توالت وتوالت حتى ارتفعت عنا حالة القحط التي كادت تهلك البلاد والعباد؟ أصدقكم الحديث : كنت في إحداها فرأيت أطفالاً قد رفعوا أيديهم إلى الله عزَّ وجل قد رفعوا أيديهم يبكون، يقولون: اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين بدموع صادقة، أيقنت عندئذ أن ربنا تبارك وتعالى قد استجاب، أجل استجاب مادام الأطفال الأبرياء رفعوا أكفهم إلى الله عزَّ وجل ضارعين إلى الله أن يرحم البلاد والعباد، فلابد أن يرحم الله بلادنا وعباده.

إذاً: عليك أن تعود إلى أسرتك فلقنهم التوبة والإنابة وإصلاح الحال والتضرع والدعاء، أجل حتى الأطفال، نعم الأطفال لأنهم ليسوا بمذنبين ، أكفهم البريئة إذا ارتفعت إلى الله بالضراعة، لابد أن يستجيب الله عزَّ وجل لهم لابد أن يغيث الله تعالى هذه الأمة.

إن كنا نحن قد صدقنا بالتوبة إلى الله عزَّ وجل، إن كنا قد أصلحنا المسار.. إن عدنا عن طريق الغواية وطريق الخطأ الذي سلكناه في حياتنا، سواء على الصعيد الفردي أو على الصعيد العام سيفرج الله عنا

لنعد إلى ربنا تبارك تعالى، لننبذ الظلم بأي شكل من الأشكال، بأي صورة من الصور، ومن أي طرف من الأطراف. فالظلم ظلمات في الدنيا والآخرة، والبغي والعدوان يحيق بصاحبه ، ويحيق بالمجتمع كله، لذلك على الجميع أن يعودوا إلى ربهم، على الجميع أن يحاسبوا أنفسهم، على الجميع أن يقلعوا عن أخطائهم، ويتوبوا إلى ربهم ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ۞ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ۞ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ

كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ۞أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ۞أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۞ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

أرجو أن يلهمني الله تعالى وإياكم عودة راشدة إلى الله سبحانه وتعالى نقلع فيها عن الذنب سواء على الصعيد الفردي، أو على صعيد الأسرة، أو على صعيد ميدان المعاملات، أو على الصعيد العام، الذي ظهر أثر أخطائنا فيه، أرجو أن نعود إلى ربنا عودة راشدة، ليعود الأمن والأمان، ولتعود الطمأنينة والسلامة، وليعود بلدنا هذا آمنا مطمئناً يأتيه رزقه رغداً، كما عودنا ربنا في سالف الأيام ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾

أيها المسلمون

نحن أمام امتحان، امتحان لمدى إيماننا بلا إله إلا الله، فلا نافع ولا ضار، ولا معطي ولا مانع، ولا ناصر ولا مؤيد إلا الله عزَّ وجل. لا تعولوا على قوة أرضية بالغة ما بلغت، وإنما عولوا على أمرين اثنين، الأمر الأول: أن الأمر كله بيد الله. الأمر الثاني: مدى التجائنا وصدق عودتنا إلى الله، إذا تحقق هذان الأمران سيسخر الله تعالى الدنيا برمتها من أجل نصرتكم، ومن أجل رفع هذا البلاء عنكم، وسيبوء أولئك الأوغاد ..... ولكن واجبنا نحن أن نعود إلى الله... أن نصدق في التوبة إلى الله... أن نصدق في الالتجاء إلى الله... فهو مولانا ونعم المولى ونعم النصير.